الضّاد الضّعيفة صورة من صور تحوّل الضّاد صوتيّاً

م.د .حسين عيدان مطر الشمّريّ
المديرية العامة للتربية في محافظة النجف الأشرف

ملخص:

عُنِيَ علماء العربية القدامى والمحدثون بدراسة أصوات الحروف فعيَّنوا مخارجها وبيّنوا صفاتها وسجّلوا ما لاحظوه ممّا طرأ عليها من تبدُّل أو تغيّر بسببٍ من مجاورة بعضها بعضاً ' وما لَحِق بعضها من انحرافٍ في النطق عبر العصور والأجيال لعواملَ مختلفة ' بيئيّةٍ أو لهجيّةٍ أو بسببٍ من طبيعة الحروف نفسها على وفق قواعد التبدّل الصوتي ومؤثراتها ' وصوت الضاد من هذه الأصوات التي كانت موضع عناية الدارسين قديماً وحديثاً'إذ استأثر هذا الحرف بالبحث والدرس, فأوْلَوْه اهتماماً ملحوظاً وبخاصةٍ في مباحث القراءات القرآنية ؛لأنّه أصعب الحروف نطقاً, فضلاً على أنّه للعرب خاصة, فليس يُنطق في لغة العجم إلاّ قليلاً[1],من هنا كان السرُّ في إطلاق (لغة الضّاد) على اللغة العربية ,فصوت الضاد رمز لغتنا , ويأتي (على قمَّة السمات الصوتيّة التي تنفرد به اللغة العربيّة ,وذلك أنَّ هذا الصوت بوصفه وحدة صوتيّة ذات قيمة وظيفيّة في تركيب الكلمة ودلالتها,ليس له وجود على الإطلاق في أيَّة لغة معروفة على وجه الأرض)[2],فاللغة العربيّةــ إذنْ ــ تنفرد بهذا الحرف الذي لا نظيرَ له في (اللغات العالميّة ,بل في اللغات الساميّة القريبة الأَصْر باللغة العربيّة)[3]. وفي هذا البحث عرض لطائفة من أقوال علماء العربية وآرائهم في حرف الضاد والتحوّل الذي أصابه,وما قيل في ما سمّي قديماً بـــ(الضاد الضعيفة),وقد قسّمته على مبحثين :

الأول:في"الضاد الفصيحة",مخرجها,وصفاتها ,وما آلت إليه من أصوات,وربَّما ما أصابها من اضمحلالٍ مثلما ذكر ذلك المتخصّصون.

والثاني: في "الضاد الضعيفة" ,وما لاحظه القدامى وسجّلوه حولها وتبعهم في وصفها ووصف مخرجها المعاصرون.

المبحث الأول:الضاد الفصيحة:

حرف الضاد أعسر الحروف في النطق ,قال ابن الجزريّ(ت338هـــ): (واعلمْ أنَّ هذا الحرف ليس من الحروف حرفٌ يعسرُ على اللسان غيره, والناس يتفاضلون في النطق به)[4],وقد كان العرب يتباهون بنطقهم الخاص لصوت الضاد[5] .

أمّا مخرج صوت الضاد فقد ذكر الخليل (ت 175هـ) أنّه والجيم والشين في حيّز واحد[6] ,فهو عنده حرف شجْريّ,يبدأ من شجْر الفم ,أيْ :مَفْرجُه[7], وكونه هو والجيم والشين من شَجْر الفم ,أيْ:مفتحه,وهو وسط اللسان (فإنّها تخرج ممّا يقابل وسطَه من حافته ... ولا يلزم من تسميتها شجرْيّة أن تخرج من نفس الشجْر, بل يكفي خروجها ممّا يقابله ويقرب منه وما قارب الشيء يُعطى حكمه)[8].

وقال سيبويه (ت180هـ) محدّداً مخرج الضاد :(من بين أوّل حافة اللسان وما يليها من الأضراس مُخرج الضاد)[9],ووَصَفه بالجهر والرخاوة والإطباق, وشدّد على صفة الإطباق, فذكر أنَّ الضاد لولا الإطباق لخرجت من الكلام ؛ (لأنَّه ليس شيءٌ من موضعها غيرُها)[10],والضاد من حروف الاستعلاء,قال ابن جنّي(ت392هـ):(الضاد حرف مجهور ,وهو أحد الحروف المستعلية)[11].

ووَصَف ابن سينا(ت370هـ)طريقة إخراج الضاد قائلاً:(وأمّا الضاد فإنّها تحدث عن حبسٍ تامٍّ عندما تتقدّم موضع الجيم)[12],وقال ابن يعيش (ت643هـ) واصفاً مخرج الضاد وجامعاً بين قولي الخليل وسيبويه:(والضاد من حيِّز الجيم والشين ولها حيِّز واحد ؛لأنّها تقرب من أوّل حافة اللسان وما يليها من الأضراس إلاّ أنّك إنْ شئتَ تكلّفتَها من الجانب الأيمن ,وإنْ شئتَ من الجانب الأيسر)[13],وذكر ابن الحاجب(ت646هـ) أنّ أكثر الناس يخرجونها من الجانب الأيسر[14].

وبدا الرضيّ الأستراباذيّ (ت686هـ) أكثر وضوحاً في تحديد مخرج الضاد, فمرّة نظر إليه من جهة عمل اللسان ,وأخرى من جهة موضعه من الأسنان ,فقال:(فأنت تخرج الضاد من أقصى إحدى حافتي اللسان إلى قريب من رأس اللسان, ومنتهاه أوّل مخرج اللام ,هذا الذي ذكرناه مخرج الضاد ,من اللسان إلى قريب من رأس اللسان, وموضعها من الأسنان نفس الأضراس العليا , فيكون مخرجها بين الأضراس وبين أقصى إحدى حافتي اللسان)[15].

واختُلِف في أيّ حافتي اللسان أسهل لإخراج الضّاد ,فالرضيّ الأستراباذي يرى أنّ الضاد (أكثر ما تخرج من الجانب الأيمن على ما يُؤْذن به كلام سيبويه وصرّح به السيرافيّ)[16], في حين أشار ابن الجزريّ إلى أنّ الضاد حرف صعب من أيِّ الجانبين أُخرج ,إلاّ أنّه من اليمين أصعب[17].

وذكر الجاربرديّ (ت 746هـ)أنّ إخراجه من الجانب الأيسر أيسر عند الكثيرين, وقد يستوي إخراجه من الجانبين عند بعضهم ,أيْ :إنّه يخرجه من أحدهما تارةً ,ومن الآخر تارةً أخرى[18] ,ومنهم من نسب إلى رسول الله ــ صلّى الله عليه وآله وسلّم ــ إخراجه من كلتا الحافتين[19].

ووصفُ خروج الضاد أنّ اللسان يضغط (على أعلى الحنك بحيث يستمرّ جَرْيُ الصوت على امتداد حافة اللسان"أو حافتيه معاً" من الأمام إلى الخلف بحيث يتخامل الصوت ويتضاءل مستطيلاً مقداراً زمنيّاً أقلّ من حركتين)[20].

وقد أجمل ابن غانم المقدسيّ(ت 1004هـ)صفات الضاد فذكر مجموعة,منها: الجهر والرخاوة والاستعلاء والإطباق والإصمات والتفخيم والاستطالة والتفشّي[21].

إنّ تعيين مخرج الضاد وبيان صفاته تنطبق على الضاد العربية القديمة, أمّا صوت هذا الحرف اليوم فلا تنطبق عليه أكثر الأوصاف المذكورة[22],(وعلى هذا فالضّاد الّتي ننطقها اليوم ليست هي الضّاد القديمة الّتي كانت عند العرب القدماء, وإنّما هي تطوّر عنها)[23], وبذلك مثّل هذا الحرف مشكلة صوتيّة ما تزال قائمة ,فمثلما وقف عنده القدامى من علماء العربية وتناولوه بالبحث واختلفت أقوالهم فيه تناوله علماء اللغة المحدثون من العرب والمستشرقين وتتبّعوا ما جرى له من انحرافات على ألسنة الناطقين به فصرّحوا أنّه(لم يعُد يُسمع من الناطقين بالعربية اليوم على تلك الصفة التي حدّدها علماء العربية وعلماء التجويد)[24],فقد تحوّل هذا الصوت إلى أصوات فرعيّة لم يفُت علماء العربية أنْ يذكروا صوراً محوّلة منه جرت على الألسنة ,حاول بعضهم أنْ يستقصيها في بحث مستقلّ,فذكر الضاد المشوبة بالظاء,والضاد التي تنطق ظاءً خالصةً, والضاد التي يشمها الذال ,والضاد التي يشمها الزاي ,والضاد التي تنطق لاماً مفخّمة , والضاد الطائيّة ,وهي المشوبة بالطاء[25].

وممّن يرى فقدان الضاد الصحيحة من حروف العربية وأصواتها الدكتور حسام النعيميّ إذْ قال:(إنّه لا مناص من التسليم بوصف القدامى لمخرج الضاد؛لأنّنا اليوم قد فقدنا نطقه تماماً, ويمكن القول بأنّ الضاد قد خرج من الألسن العربية المعاصرة و اضمحلّ منها)[26].

وقال المستشرق الألمانيّ برجشتراسر:(ويغلب على ظنّي أنّ النطق العتيق للضاد لا يوجد الآن عند أحدٍ من العرب)[27].ومثل هذا القول نجده عند هنري فليش,إذ قال عن الضاد ــ بعد أن وصفه بأنّه صوتٌ مفخّم,واحتمل أنّه كان طاءً (d) جانبيّة,قال:(وقد اختفى هذا الصوت ,فلم يعُد يُسمع في العالم العربيّ)[28].

أمّا الصور التي اتّخذها صوت الضاد على ألسنة الناس فقد ذكر الدكتور النعيميّ أنّ الضاد تحوّل إلى (ظاء) في نطق أهل العراق , وأنّ بعض المسلمين من غير العرب يتكلّف الإتيان به فلا يخرج إلاّ لاماً مفخّمة,وبخاصّةٍ في قراءة{ولا الضالّين} فيقرأ ("ولا اللاظّين", ينطق الضاد لاماً مفخّمة وإيقاع أثر التفخيم على اللام التي تليها "لام الكلمة")[29].

ولعلّ هذا التحوّل بها نحو اللام له أصلٌ في نطق بعض العرب قديماً,فالأمر ليس خاصّاً ببعض المسلمين من غير العرب ,فقد ذكر سيبويه أنّ من العرب من يقول: "الْطَجَعَ" في"اضْطَجَعَ"(أبدل اللام مكان الضاد كراهية التقاء المُطبَقَينِ,فأبدل مكانها أقرب الحروف منها في

المخرج والانحراف)[30],وقد ذكر ابن الجزريّ أنّ "الزيالع "[31] ممّن يُخرج الضاد لاماً مفخّمة [32], ونُطق الضاد نطقاً يقرب من اللام عُرف به أهل حضرموت,قال برجشتراسر:(إنّ للضاد نطقاً قريباً جدّاً منه عند أهل حضرموت هو اللام المطبقة)[33].

وعُرف مثل هذا النطق ــ أيضاً ــ عند "الإسبان" في الكلمات التي اســتُعيرت من اللغة العربية ككلمة"القاضي",صارت في الإسبانيّة (alcalde) (ض = Id)[34].

ويبدو أنّ تقارب مخرجي الحرفين "الضاد" و"اللام" هو المسوّغ لتحوّل الضاد نحو اللام ,إذْ تجمع بينهما "حافة اللسان",وهو مسوّغ مقبول لما في اللام من الخفّة وما في الضاد من الثقل[35].

وذكر هنري فليش صورتين متحوّلتين عن الضاد بعد أنْ اختفى هذا الحرف من العربية ,وهما :صوت انفجاري سمّاه "مطبق الدال"(d),وصوت أسنانيّ,هو الظاء(d)[36],وللدكتور النعيميّ رأي يوافق فيه فليش فيما ذكره, إذْ يقول عن صوت الضاد:(إنّه تحوّل إلى "ظاءٍ" عند قوم,وإلى "دالٍ" مفخّمة عند آخرين)[37],وأضاف صورة ثالثة تحوّلت فيها الضاد إلى("طاءٍ",كما في بعض لهجات المغرب)[38].

أمّا كون الضاد نُطقت "ظاءً" فــ (كثيراً ما تطابقتا و تبادلتا في تاريخ اللغة العربية ,وأقدم مَثَلٍ لذلك مأخوذ من القرآن الكريم هو"ضنين" في سورة "التكوير"[39],فقد قرأها كثيرون "ظنين" بالظاء مكان الضاد التي رُسمت بها في كلّ المصاحف ,وممّن قرأها بالظاء ابن كثير وأبو عمرو و الكسائيّ)[40],وممّن قرأها ــ أيضاً ــ رُوَيس وابن مهران [41].

ولعلّ هذا الأمر يلقي ضوءاً على النطق القديم للضاد فهي على ما يبدو (مثل الظاء تماماً ما عدا صفة الانحراف التي تشبه فيها اللام)[42],وهو ما أشار إليه أبو إسحاق الجعبريّ[43](ت 732هــ)وهو من علماء العربية والقراءات,فقد نقل عنه ابن غانم المقدسيّ قوله:(ولفظها,يعني لفظ "الضاد" يضارع لفظ "الظاء"؛لأنّهما أكثر الحروف تناسباً في الصفة)[44],وأنّ التمييز بينهما متأتٍّ من المخرج والاستطالة ,على الرغم من اشتراكهما في الجهر والإطباق والتفخيم[45],من أجل ذلك (اشتدّ الشبه بينهما,وعسر التفريق في نطقهما)[46],ثمّ إنّ مخرجيهما وإنْ كانا بعيدين (فإنّ مخرج الظاء من طرف اللسان وأطراف الأسنان,ومخرج الضاد من حافة اللسان وما يليه من الأضراس)[47],ولما كانت الأضراس من جنس الأسنان (وأنّ بين طرف اللسان وحافته مشابهة من حيث إنّ كلاّ منهما نهاية مساحة جرم اللسان,فالطرف نهايته من جهة مقدّم الفم ,والحافة نهايته من جهة اليسار أو يمينه ,فمخرج كلٍّ من الظاء والضاد نهاية اللسان وبعض الأسنان,فلا جرمَ تشابهَ منهما اللفظان)[48].

وهذا التشابه بينهما و عسر التفريق في نطقهما هو ما يفسّر لنا حرص اللغويين والمعنيين بعلوم العربية على تأليف الكتب والرسائل والمنظومات التي جمع فيها أصحابها طائفة من الكلمات التي بالضاد أو بالظاء[*] ,(إذ كانا حرفين قد اعتاص معرفتهما على عامّة الكتّاب لتقارُب

أجناسهما في المسامع وإشكال أصل تأسيس كلّ واحد منهما والتباس حقيقة كتابتهما؛ولأنّ في ترك النظر في ذلك إفساد اللغة وتغييراً لأحكام العربية ,و هجنة على من لم يُحِط به معرفة,ومخالفة لحقائق الهجاء,وتبايناً في تفسير المعاني)[49].

و ربّما ذهب بعض الباحثين المعاصرين إلى أنّ الاختلاف بين الضاد والظاء عائد إلى سبب لهجيّ, فقد استنتج الدكتور صبحي الصالح من نصٍّ أورده ابن سيده(ت458هـ) في كتابه "المخصّص", وهو(فاضَتْ نفسُه:خرجَتْ, تميميّة)[50], استنتج(أنّ الظاء حجازيّة,والضاد تميميّة)[51].

في حين يرى آخر أنْ لا فرقَ بين الحرفين (فإنّهما حرف واحد ذو مخرج خطّيّ)[52] إذ الفرق بينهما ينحصر في أنّ الظاء تخرج من حافة اللسان وأسلَته في حال كونها على مستوى الأسنان لا تُجاوز مكانها إلى خارجها ,و(الضاد يُنطق بكامل اللسان ,ويظهر منه إلى ما أمام الأسنان جزءٌ مرئيّ لرائيه)[53], ومثّل للضاد بأنّ نطق العرب له (حين قالت:"عضّ" حدّدت موضع الضاد في اللسان إذْ لا يكون العضّ إلاّ بإخرج شيء من اللسان تقع عليه الأسنان,وليس الظاء كذلك)[54],وهذا الوصف لمخرج الضاد لم يُؤثَر عن علماء العربية القدامى ,ولم يشيروا إليه بأيَّة إشارة ــ في حدود ما اطّلعت عليه من مصادرــ ,نعم ,لا يبعد أنْ يكون صورة أخرى من صور نطق هذا الحرف يلاحظ على ألسنة الناطقين به من المعاصرين ,والحال أنْ ليس من الصواب وصف مخرج الضاد بما أحدثه عليه المعاصرون من متكلّمي العربية,ومن ثَمَّ إطلاق هذا الوصف عليه ليعمَّ عصور العربية المديدة .

المبحث الثاني: الضّاد الضعيفة:

كان سيبويه أوّل من ذكر "الضاد الضعيفة"[55]في معرض كلامه على الحروف التي وصفها بأنّها (حروف غير مستحسنة ,ولا كثيرة في لغة من تُرضى عربيّته ولا تُستحسن في قراءة القرآن ولا الشعر)[56],ووصفُ الضاد بـــ "الضعيفة" إشارة إلى أنّها (نوع من أنواع الضاد التي لم تستوفِ صفات الضاد العربية كاملة)[57],ثمّ أخذ سيبويه في بيان مخرجها قائلاً:(...إلاّ أنّ "الضاد الضعيفة"تُتَكلّف من الجانب الأيمن ,وإنْ شئتَ من الجانب الأيسر ,وهو أخفّ؛لأنّها من حافة اللسان مطبقة)[58],وسرُّ خفّة إخراجها من الجانب الأيسر علّله السيرافيّ (ت 368هـ)- في ما نقل عنه ــ بقوله:(لأنّ الجانب الأيمن قد اعتاد الضاد الصحيحة,وإخراج "الضعيفة" من موضع اعتاد الصحيحة أصعب من إخراجها من موضع لم يعتَد الصحيحة)[59].

يُفهم من كلام السيرافيّ أنّ الاختلاف بين الضادين "الصحيحة"و"الضعيفة" حصل بسببٍ من اختلاف أيٍّ من جانبي اللسان يَستعمل الناطق ,فالضاد الصحيحة اعتادت الجانب الأيمن من اللسان,في حين أنّ خفّة الضاد الضعيفة يسّر إخراجها من الجانب الأيسر الذي لم يكن مخصّصاً

للصحيحة ولم تعتد أنْ تُخرج منه,وكأنّ الأمر للتمييز بينهما يدور مدار أحد جانبي اللسان الأيمن أو الأيسر ,وإلاّ فكلتاهما من حافة اللسان ,وكلتاهما تتّصف بالإطباق[60].

غير أنّ الأعلم الشنتمريّ(ت476هـ) عدّ " الضاد الضعيفة"(من لغة قومٍ ليس في أصل حروفهم ضاد)[61],وهذا الرأي نُقل عن السيرافيّ[62]ـ أيضاً ـ, لكنْ لم يسمِّ أيٌّ منهما هؤلاء القوم. وهذا يعني أحد احتمالين:الأوّل: إمّا أنّ هؤلاء القوم ـ حقّاً ـ خلت لغتهم من حرف الضاد فلجأوا إلى ابتداع حرف يُشبه الضاد شبهاً ما ,وهو حرف عدّه سيبويه من الحروف غير المستحسنة,أوالمرذولة وغير المتقبّلة بحسب نعت ابن جنّي له و لغيره من الحروف التي لم توصف بأنّها فصيحة[63],وإنّما جاء ابتداع هؤلاء لهذا الحرف ليستعينوا به على نطق الكلمات التي يرد فيها حرف الضاد المتّصف بالفصاحة أو الصحّة.

فـ"الضاد الضعيفة"ـ إذنْ ,وبحسب هذا الاحتمال ـ يمكن عدّها صوتاً مبتكراً بديلاً عن الضاد الفصيحة لا أنّه متحوّل عنها.

والاحتمال الآخر:وهو ما أشار إليه السيرافيّ ,ومفاده أنّ المتكلمين بالحروف "غير المستحسنة" و بضمنها "الضاد الضعيفة" هم من العرب الذين خالطوا العجم[64],وهذا يعني أنّ "الضاد الضعيفة" صورة نطقية متحوّلة عن "الضاد الفصيحة",ويبدو هذا القول راجحاً على ضوء قواعد تبادل التأثيرات بين اللغات ,فليس هناك ما يمنع من أنْ يشوب "الضاد الفصيحة" بعض آثار اللغات الأخرى جرّاء المجاورة والاختلاط.

وقد أورد الأعلم الشنتمريّ ثلاثة أوصاف لإخراج الضاد الضعيفة هي:

الأولى:أنّها ربّما خرجت ظاءً[65],(وذلك أنّهم يخرجونها من طرف اللسان وأطراف الثنايا)[66].

الثانية:(ربّما تكلّفوا إخراجها من مخرج الضاد فلم يتأتَّ لهم فخرجت بين الضاد والظاء)[67].

الثالثة: نقلها عن حاشية كتاب مبرمان (ت345هـ),وتحصل بتقريب "الثاء" من "الضـــاد",(يقولون في"اثْرُدْ":"اضْرُدْ",يقرّبون "الثاء"من"الضاد", حكاه أبو سعيد)[68].

في حين ذكر أبو حيّان الأندلسيّ(ت745هـ) أربع صور لإخراج "الضاد الضعيفة",عزاها إلى القائلين بها من العلماء من غير أنْ ينسبها هو أو ينسبوها هم إلى الناطقين بها من أصحابها,وهي كالآتي:

الأولى:نقلها عن أبي علي الفارسيّ(ت377هـ),وصورتها(إذا قلت :"ضرب" ولم تشبع مخرجها ,ولا اعتمدتَ عليه,ولكن تخفّف وتختلس,فيضعف إطباقها)[69].

الثانية :ما قاله ابن خروف (ت609هـ) من أنّها (هي المحرّفة من مخرجها يميناً أو شمالاً,كما ذكر سيبويه)[70].

الثالثة:وتقضي بتقريب " الثاء" من "الضاد" ,وهي منقولة عن مبرمان ,وقد تقدّم أنْ نقلها عنه الأعلم الشنتمريّ,و بها قال ابن عصفور[71] (ت669هـ).

الرابعة:وهي الصورة التي ذهب إليها أبو حيّان الأندلسيّ ,إذْ لم يسلّم بما قاله مبرمان بل عكس قوله,فـ"الضاد الضعيفة" عند أبي حيّان هي الحاصلة من تقريب "الضاد" من "الثاء" لا من تقريب "الثاء" من"الضاد",(فتقول في "اضربْ زيداً":"اثربْ زيداً",بين "الضاد"و"الثاء")[72].

وكون مخرج "الضاد الضعيفة"من بين "الضاد"و "الظاء" ــ بحسب ما تقدّم ذكره عن الأعلم ــ هو ما عليه نطقها في زمان ابن الحاجب المتوفَّى في سنة (646) من الهجرة ,فقد وصفها بأنّها (التي لم تقوَ قوَّة الضاد المخرجة من مخرجها , ولم تضعف ضعف الظاء المخرجة من مخرجها,فكأنّها بينهما كما ينطق بها أكثر الناس اليوم)[73].

ولعلّها هي التي أشار إليها أبو علي الفارسيّ في قوله المتقدّم بأنّها لا يُشبع مخرجها , ولا يُعتمد عليه,(ولكنْ تُخفّف وتُختلس فيضعف إطباقها), فالمراد بـ"قوّة الضاد" إطباقها, إذْ لولاه (لخرجت الضاد من الكلام ؛لأنّه ليس شيء من موضعها غيرها)[74],وهو ما عناه أبو علي الفارسيّ بـ"الاعتماد على المخرج وإشباعه",فعندما لا يحصل ذلك (تُخفّف و تُختلس فيضعف إطباقها)الذي بضعفه وذهابه تخرج الضاد إلى حرف آخر غير مستعمل في العربية الفصيحة ,أو غير مستحسن ــ على حدّ عبارة سيبويه ــ , وهو "الضاد الضعيفة".

وقال ابن غانم المقدسيّ (ت1004هـ) عند ذكره "الضاد الضعيفة":(ليس كون الضاد شبيهة بالظاء وقريبة منها كونها ممزوجة بها غاية الامتزاج بحيث يخفى الفرق بينهما على المُجيد...فإنّها ــ حينئذٍ ــ تكون حرفاً خارجاً عن الحروف العربية المستعملة,كما تقرّر في محلّه من كتب النحو والقراءات,وتسمّى بـ"الضاد الضعيفة")[75].

ولعلّ هذا القول يفسّر لنا قول سيبويه من (أنّها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها ,فتستطيل حيث تخالط حروف اللسان فيسهل تحويلها إلى الأيسر ؛لأنّها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن , ثمّ تنسلّ من الأيسر حتّى تتّصل بحروف اللسان كما كانت كذلك في الأيمن)[76].

أمّا الباحثون في الأصوات العربية من المعاصرين فإنّهم لم يقطعوا في"الضاد الضعيفة" " برأيٍ راجح يذهب إلى تحديد مخرجها وتعيين صفاتها ,بل ظلّ وصف القدامى ولاسيّما وصف سيبويه لها ماثلاً أمامهم وموضع حيرة لدى بعضهم, ولاغرْوَ فإنّ صوت "الضاد الضعيفة" وغيره من الأصوات (لا تتبيّن إلاّ بالمشافهة)[77],و أنّى للمعاصرين ذلك؟ .

فقول سيبويه في وصف "الضاد الضعيفة" علّق عليه الدكتور إبراهيم أنيس قائلاً:(لم نستطع حتّى الآن أنْ نحدّد مدلوله الدقيق في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة ... وهكذا تركنا سيبويه في حيرة من أمر هذا الصوت)[78].

وذكر الدكتور رمضان عبد التوّاب أنّ ما سمّاه اللغويّون بـــ"الضّاد الضّعيفة"مظهر (من مظاهر عدم تمكّن بعض العرب القدماء من نطق الضّاد الّتي عرفنا وصفها من قبل) [79], أي:"الضّاد الفصيحة"

وقال محمّد الأنطاكيّ:(لا الوصف ولا القوانين الصوتية تستطيع أنْ تفسّر لنا كيف هي "الضاد الضعيفة"؟)[80].

واكتفى الدكتور تمّام حسّان بأنْ قال:("الضاد الضعيفة":ولسنا نجد تمثيلاً لها في كتاب سيبويه ,ولم نرَ شرحاً لطابع ضعفها)[81],ثمّ ذكر وصفاً لنطق "الضاد الفصيحة" وأتمّ كلامه بمتابعة ابن عصفور في تمثيله للضاد الضعيفة ب"اثْر" التي تصير(اضْر),إذْ (إنّ بعض العرب حيث ينطقون كلمة تشتمل على صوت الثاء متلوّاً بحرف مفخّم مجهور يحدث في نطق الثاء شيء من عدوى التفخيم والجهر الضعيفة فتصير الثاء بذلك ضاداً ضعيفة)[82].

ويرى الدكتور النعيميّ أنّ "الضاد الضعيفة"أصابها ما أصاب "الضاد الفصيحة",إذْ هي فرع عليها, ولمّا كانت "الضاد الفصيحة" صوتاً(خرج من مجموعة أصوات العربية المستعملة اليوم ,فلم يعُد لها وجود في نطق أحد من العرب)[83],فإنّ "الضاد الضعيفة" هي الأخرى (لم يعُد لها وجود في فصيح أو عامّيّ)[84], وليس ببعيدٍ أنْ تكون "الضاد الضعيفة" ضاداً فصيحة مهموسة ؛لأنّ وصف سيبويه مخرجها لا يختلف كثيراً عن وصفه مخرج "الضاد الفصيحة"[85],(فوَصَفَها بالضعف لِما أحسّه من فقدها الصوت الفرعيّ حين لا يهتزّ الوتران بها ,أو حين جرى بها النفَس على مصطلحهم)[86],فـــ"الضاد الضعيفة"صورة من صور تحوّل "الضاد الفصيحة",ولكن نحو الظاء[87].

الخاتمة:

ممّا تقدّم يتبيّن أنّ الضاد العربية "الفصيحة" حرف صَعُب على الباحثين أمره مثلما صَعُب على الناطقين به قبل ذلك, فما كان إلاّ عرضةً للتحوُّل والتغيير, وربَّما الاضمحلال ,ولعلّ من مظاهر هذا التحوّل ما ذكره القدامى في إشارتهم إلى صوتٍ ذي صلةٍ بالضاد أو فرع عنه ,إنّه ما اصطلحوا عليه "الضاد الضعيفة",وهو صوت لم تتّضح صورته وضوحاً جليّاً,فاختلفت أقوال العلماء فيه وتشعّبت ,قديماً و حديثاً, بسببٍ من أنّه لم تحدّد صفاته ومخرجه على سبيل التفصيل والتدقيق,وهو – أيضاً– لم يعُد مستعملاً اليوم لما أصابه من تغيير مثلما أصاب " الضاد الفصيحة" ,وإنْ كان البحث لا يستبعد أنْ تكون "الضاد الضعيفة" صورة من صور التحوّل الصوتيّ التي عرضت للضاد في حقبة من الأحقاب السالفة.

الهوامش

1ــ ينظر: سرّ صناعة الإعراب:214/1.ولبيان سبب إطلاق "لغة الضّاد" على اللغة العربيّة ,ينظر:الأصوات اللغويّة:47.

2ــ دراسات في علم اللغة:198.

3ــ منهج البحث الصوتيّ عند العرب (ضمن)مجلة الضاد ج3 :87.

4ــ التمهيد في علم التجويد:140.

5ــ ينظر: العربية الفصحى:37.

6ــ ينظر: العين:53/1.

7ــ ينظر :م.ن .

8ــ بغية المرتاد(ضمن) مجلة المورد مج18ع2 :127.

9ــ الكتاب:433/4.

10ــ م.ن:436/4.

11ــ سرّ صناعة الإعراب:213/1.

12ــ أسباب حدوث الحروف:.18.

13ــ شرح المفصّل:125/10.

14ــ ينظر:الإيضاح في شرح المفصّل:480/2.

15ــ شرح شافية ابن الحاجب:252/3.

16ــ م.ن.

17ــ ينظر: التمهيد في علم التجويد:114.

18ــ ينظر:شرح الشافية للجاربرديّ:498.

19ــ ينظر:حقّ التلاوة:192.

20ــ م.ن.

21ــ ينظر:بغية المرتاد:121ــ123.

22ــ ينظر: الدراسات اللهجية واللغوية عند ابن جنّي:27.

23- مشكلة الضاد العربية وتراث الضاد والظاء(ضمن) مجلة المجمع العلميّ العراقيّ مج 21س 1391هـ -1971م:216.

24ــ الدراسات الصوتية عند علماء التجويد:266 .

25ــ ينظر:بغية المرتاد:124ــ126.

26ــ الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنّي:308.

27ــ التطوّر النحويّ:19.

28ــ العربية الفصحى:37.

29ــ أصوات العربية بين التحوُّل والثبات:51.

30ــ الكتاب:483/4.

31ــ الزيالع: زيلع: موضع وقد غلب على جيل من الناس,أو بلد بساحل بحر الحبشة,وقد خرج منه جماعة من العلماء والمحدّثين.ينظر:تاج العروس:154/21.

32ــ ينظر: التمهيد في علم التجويد:141.

33ــ التطوّر النحويّ:19.

34ــ ينظر:م.ن.

35ــ ينظر: الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنّي:115.

36ــ ينظر:العربية الفصحى:37.

37ــ الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جنّي:308.

38ــ م.ن.

39ــ الآية :24, قوله تعالى:{وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ}.

40ــ التطوّر النحويّ:19ــ20.

41ــ ينظر: النشر في القراءات العشر:299/2.

42ــ الوجيز في فقه اللغة:185.

43ــ إبراهيم بن عمر,أبو إسحاق الجعبريّ,عالم بالقراءات ,له منظومة فيها,وشرح على الشاطبيّة, توفي سنة 732هـ .تنظر ترجمته في:بغية الوعاة:420/1.

44ــ بغية المرتاد:128.

45ــ ينظر:م.ن.

46ــ م.ن.

47ــ م.ن:129.

48ــ م.ن.

(*) أحصى د.حاتم الضامن ما يقرب من أربعين مؤلّفاً بين كتاب ورسالة ومنظومة شعريّة.ينظر:مجلة المجمع العلميّ العراقيّ,مج31ج3س1400هـ ــ1980م:332.وقد استدرك عليه جمال بن السيّد الرفاعيّ فذكرأسماء تسعة وأربعين عالماً ممّن ألّفوا في الموضوع نفسه.ينظر:إتحاف الفضلاء في بيان من ألّف في الضّاد والظاء:119.

49ــ الفرق بين الضاد والظاء:3.

50ــ المخصّص:36/15.

51ــ دراسات في فقه اللغة:92.

52ــ قواعد التجويد والإلقاء الصوتيّ:21.

53ــ م.ن:22.

54ــ م.ن.

55ــ ينظر: الدراسات الصوتية عند علماء التجويد:279.
56ــ الكتاب:432/4.
57ــ الدراسات الصوتية عند علماء التجويد:279.
58ــ الكتاب:432/4.
59ــ شرح شافية ابن الحاجب:251/3.
60ــ ينظر:الكتاب:432/4ــ436.
61ــ النكت في تفسير كتاب سيبويه:1245/2.
62ــ ينظر:شرح شافية ابن الحاجب:254/3.
63ــ ينظر:سرّ صناعة الإعراب:46/1.
64ــ ينظر:همع الهوامع:230/2.
65ــ ينظر:النكت في شرح كتاب سيبويه:1245/2.
66ــ م.ن.
67ــ م.ن.
68ــ م.ن.وينظر:شرح شافية ابن الحاجب:256/3.
69ــ ارتشاف الضرَب:15/1,وينظر:همع الهوامع:230/2.
70ــ م.ن.
71ــ ينظر: الممتع في التصريف:666/2.
72ــ ارتشاف الضرَب:16/1.
73ــ الإيضاح في شرح المفصّل:484/2.
74ــ الكتاب:436/4.
75ــ بغية المرتاد:129.
76ــ الكتاب:432/4.
77ــ م.ن.
78ــ الأصوات اللغويّة:49.
79ــ مشكلة الضّاد العربيّة و تراث الضّاد والظاء(ضمن) مجلة المجمع العلميّ العراقيّ مج 220:21.
80 ــ الوجيز في فقه اللغة:175.
81ــ اللغة العربية معناها ومبناها:55.
82ــ م.ن.
83ــ أصوات العربية بين التحوّل والثبات:47.
84ــ م.ن.
85ــ ينظر:م.ن:55.
86ــ م.ن.
87ــ ينظر:م.ن:54.

المصادر والمراجع:

1- إتحاف الفضلاء في بيان من ألّف في الضّاد والظّاء,جمع وترتيب وتعليق جمال ابن السيّد الرفاعيّ الشايب ,مكتبة السنّة (د.ت).

2- ارتشاف الضّرَب من لسان العرب,أبو حيّان الأندلسيّ,محمّد بن يوسف (ت754هـ), تحقيق د.رجب عثمان,ط1,مكتبة الخانجيّ , القاهرة(1418هـ ـ1998م).

3- أسباب حدوث الحروف,ابن سينا ,أبو علي الحسين بن عبد الله(ت370هـ) , مراجعة طه عبد الرؤوف,مصر(1398هـ ـ1978م).

4- أصوات العربية بين التحوّل والثبات,د.حسام سعيد النعيميّ ,سلسلة بيت الحكمة(4),جامعة بغداد,مطابع الموصل(د.ت).

5- الأصوات اللغويّة, د.إبراهيم أنيس,مكتبة الأنجلو المصريّة(1999م).

6- الإيضاح في شرح المفصّل,ابن الحاجب النحويّ,أبو عمرو عثمان بن عمر (ت646هـ) , تحقيق د.موسى بناي العليليّ,مطبعة العانيّ,بغداد(1402هـ ـ1982).

7- بغية المرتاد لتصحيح الضاد,علي بن غانم المقدسيّ(ت1004هـ),تحقيق د.محمّد جبار المعيبد,(ضمن)مجلة المورد مج18ع2(1409هـ ـ1989م).

8- بغية الوعاة في طبقات اللغويّين والنحاة ,جلال الدين عبد الرحمن السيوطيّ(ت 911هـ),تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم,المكتبة العصريّة,بيروت(د.ت).

9- تاج العروس من جواهر القاموس,الزبيديّ, أبوالفيض محمّد مرتضى (ت 1205هـ) . ج21 تحقيق عبد العليم الطحاويّ,دولة الكويت (د.ت).

10- التطوّر النحويّ للغة العربية,المستشرق الألمانيّ برجشتراسر,إخراج وتصحيح د. رمضان عبد التوّاب,مطبعة المجد,القاهرة(1402هـ ـ1982م).0

11- التمهيد في علم التجويد,ابن الجزريّ شمس الدين أبو الخير محمّد بن محمّد (ت833هـ),تحقيق د.غانم قدوري الحمد,ط1 ,مؤسسة الرسالة ,بيروت(1406هـ ـ1986م).

12- حقّ التلاوة,حسين شيخ عثمان,ط9,مكتبة المنار,الأردنّ ـ الزرقاء(1410هـ ـ1990م).

13- دراسات في علم اللغة,د.كمال بشر,دارغريب ,القاهرة(1998م).

14- دراسات في فقه اللغة,د.صبحي الصالح,ط10,دار العلم للملايين ,بيروت(1983م).

15- الدراسات اللهجيّة والصوتيّة عند ابن جنّي,د.حسام سعيد النعيميّ,دار الرشيد, بغداد (1980م).

16- سرّ صناعة الإعراب,ابن جنّي,أبو الفتح عثمان بن جنّي(ت392هـ),دراسة وتحقيق د.حسن هنداوي,ط2,دار القلم,دمشق(1413هـ ـ 1993م).
17- شرح شافية ابن الحاجب,الرضيّ الأستراباذيّ,محمّد بن الحسن (ت686هـ), تحقيق نور الحسن ورفيقيه,دار الكتب العلمية,بيروت (1395هـ ـ1975م).
18- شرح الشافية للجاربرديّ, فخر الدين أحمد بن الحسن(ت746هـ), دراسة وتحقيق حسين عيدان مطر,أطروحة دكتوراه,كلية الآداب ـ جامعة الكوفة(1430هـ ـ 2009م),مضروبة على الآلة الكاتبة.
19- شرح المفصّل,ابن يعيش,موفق الدين علي بن يعيش(ت643هـ),عالم الكتب,بيروت(د.ت).
20- العربية الفصحى,هنري فليش,تعريب د.عبد الصبور شاهين,ط2,دار المشرق, بيروت(1983م).
21- العين,الخليل بن أحمد الفراهيديّ(ت175هـ),تحقيق د.مهدي المخزوميّ و د.إبراهيم السامرائيّ,دار الرسالة, الكويت(1980م)
22- الفرق بين الضاد والظاء,الصاحب إسماعيل بن عبّاد(ت385هـ),تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين,مطبعة المعارف,بغداد(1958م).
23- قواعد التجويد والإلقاء الصوتيّ,الشيخ جلال الحنفيّ,دار الحريّة للطباعة, بغداد(1987م).
24- كتاب سيبويه,أبي بشر عمرو بن عثمان(ت180هـ) تحقيق عبد السلام محمّد هارون,ط3,عالم الكتب(1403هـ 1983م).
25- اللغة العربية معناها ومبناها,د.تمّام حسّان,ط4,القاهرة(1425هـ ـ2004م).
26- المخصّص,ابن سيده,أبو الحسن علي بن إسماعيل(ت 458هـ).دار الفكر, (د.ت).
27- مشكلة الضّاد العربيّة وتراث الضّاد والظّاء,د. رمضان عبد التوّاب, (ضمن) مجلة المجمع العلميّ العراقيّ,مج 21س1391هـ -1971م,مطبعة المجمع العلميّ,بغداد.
28- الممتع في التصريف,ابن عصفور,علي بن عصفور الإشبيليّ(ت669هـ), تحقيق د.فخرالدين قباوة,ط2,دار الآفاق الجديدة,بيروت(1399هـ ـ1979م).
29- منهج البحث الصوتيّ عند العرب,د.محمّد حسين علي الصغير,(ضمن)مجلة الضاد ج3.س1409هـ -1989م,طبع دار الشؤون الثقافيّة,بغداد.
30- النشر في القراءات العشر,ابن الجزريّ (ت833هـ),تصحيح علي محمّد الضبّاع , طبع بالأوفست,مكتبة المثنى,بغداد,(د.ت).

31- النكت في تفسير كتاب سيبويه,الأعلم الشنتمريّ,يوسف بن سليمان (ت476هـ) ,تحقيق زهير عبد المحسن,منشورات معهد المخطوطات العربية ,ط1,الكويت (1407هـ-1987م).
32- همع الهوامع شرح جمع الجوامع,السيوطيّ,جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر(ت911هـ),تصحيح محمّد بدر النعسانيّ,دار المعارف,بيروت(د.ت).
33- الوجيز في فقه اللغة,محمّد الأنطاكيّ,ط3,مكتبة دار الشرق,بيروت(د.ت).